المحاضرة الأولى

الثقافة وإشكالية التعريف والنشأة

إن قدرة الإنسان علي إنتاج الثقافة هي أهم خاصية تميزه عن باقي المخلوقات . ولكل مجتمع ثقافته الخاصة التي يتسم بها ويعيش فيها ، كما إن لكل ثقافة مميزاتها وخصائصها ومقوماتها المادية التي تتألف من طرق المعيشة والأدوات التي يستخدمها أفراد المجتمع في قضاء حوائجهم ، والأساليب التي يضعونها لاستخدام هذه الأدوات . فأدوات الصيد والزراعة والقتال أدوات ثقافية ، والأزياء وأسلوب الترفيه أيضا أشكال ثقافية .

وللثقافة أيضا مقوماتها المعنوية والتي تتمثل في مجموع العادات والتقاليد التي تسود المجتمع والتي يتوارثها أفراده جيلا بعد جيل ، مثل القانون أو العرف الذي يحكمهم أو القيم والقواعد الأخلاقية التي تحدد طبيعة العلاقات بين بعضهم البعض

أولا - الثقافة : الكلمة والمفهوم

لم تشهد كلمة ازدهارا وانتشارا ككلمة الثقافة Culture وليس هناك مفهوم أكثر تداولا واستخداما كمفهوم الثقافة ، ومع ذلك يبقي الغموض والالتباس متلازمين كلما طرح الموضوع للنقاش . وقد أحصي عالما الانثروبولوجيا الأمريكيان **كروبير وكلوكهون** ما لا يقل عن مائة وستين تعريفا للثقافة قاما بفرزها علي سبعة أصناف : وصفية وتاريخية وتقييمية وسيكولوجية وبنيوية وتكوينية وجزئية غير كاملة .

وقد اكتسبت كلمة ثقافة معناها الفكري في أوربا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر . فالكلمة الفرنسية كانت تعني في القرون الوسطي " الطقوس الدينية " لكنها في القرن السابع عشر كانت تعبر عن " فلاحة الأرض" . ومع القرن الثامن عشر اتخذت منحي يعبر عن التكوين الفكري عموما وعن التقدم الفكري للشخص بخاصة .ولكن انتقال الكلمة الي الألمانية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر أكسبها لأول مرة مضمونا جماعيا . فقد أصبحت تدل بخاصة علي التقدم الفكري الذي يتحصل عليه

الشخص أو المجموعات أو الإنسانية بصفة عامة . أما الجانب المادي في حياة الأشخاص والمجتمعات فقد أفردت لها الألمانية كلمة " حضارة " .

وإذا كانت كلمة ثقافة قد مرت بهذه التطورات فأن كلمة مثقف هي ترجمة للكلمة الفرنسية "Intellect " ومعناها العقل أو الفكر وبالتالي فهي تدل عندما تستعمل وصفا لشئ علي انتماء أو ارتباط هذا الشئ بالعقل أو بالروح .

تعريف الثقافة

لاشك في أن أقدم التعريفات لمفهوم الثقافة وأكثرها ذيوعا هو تعريف الانثروبولوجي **الانجليزي ادوارد تايلور** والذي قدمه في كتابه " الثقافة البدائية " عام 1871م والذي يذهب فيه الي التعريف التالي **" الثقافة هي** كل مركب يشتمل علي المعارف والمعتقدات والفن والقانون والأخلاق والتقاليد وكل القابليات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان كعضو في مجتمع " .

ولعل أبسط التعريفات وأحدثها **تعريف روبرت بيرستد** الذي ظهر في أوائل الستينات من القرن العشرين والذي يعتبر "الثقافة هي ذلك الكل المركب الذي يتألف من كل ما نفكر فيه أو نقوم بعمله أو نتملكه كأعضاء في مجتمع ". إلا إن **تعريف روشيه** أكثر شمولا وعمقا ويقدمه علي الشكل التالي : " الثقافة هي مجموعة من العناصر لها علاقة بطرق التفكير والشعور والفعل ، وهي طرق صيغت تقريبا في قواعد واضحة والتي أكتسبها وتعلمها وشارك فيها جمع من الأشخاص – تستخدم بصورة موضوعية ورمزية في آن واحد من أجل تكوين هؤلاء الأشخاص في جماعة خاصة ومميزة " .

ويتميز **تعريف كروبير وكلوكهون** بأبعاد جديدة فهو يعتبر " الثقافة تتكون من نماذج ظاهرة وكامنة من السلوك المكتسب والمنتقل بواسطة الرموز ، والتي تكون الانجاز المميز للجماعات الإنسانية ، والذي يظهر في شكل مصنوعات ومنتجات . أما قلب الثقافة فيتكون من الأفكار التقليدية وبخاصة ما كان متصلا منها بالقيم . ويمكن أن نعد الأنساق الثقافية نتاجا للفعل من ناحية ،كما يمكن النظر بوصفها عوامل شرطية محددة لفعل مقبل" .

ثانيا : ثنائية الحضارة والثقافة

استقطبت هذه الثنائية كتابات كثيرة ،وقد احتلت فرنسا وألمانيا صفوفها الأمامية غير أن تلك الكتابات التي دارت حول الثقافة والحضارة آلت الي تشتت الأفكار في الغرب خلال الثلاثين سنة الأولي من القرن العشرين ، بقي خلالها الاستخدام الفرنسي لكلمة حضارة " Civilization"يشمل مختلف أنواع التقدم ، فكرية كانت أم مادية ، مقابل النزعة الألمانية التي نحت نحو التمييز بين الثقافة بمعناها الروحي والفكري والعلمي وبين الحضارة بمعناها المادي .

علي العموم لم يعر علماء الانثروبولوجيا والاجتماع أي اهتمام لهذا التمييز الذي بدأ لهم تمييزا وهميا . إن الغالبية العظمي من علماء الانثروبولوجيا والاجتماع تتجنب استعمال مصطلح حضارة أو تستخدم مصطلح ثقافة بمعني حضارة ، وتعتبر الاثنين من الممكن أن تحل احدهما محل الأخرى .

ومع ذلك قد نجد عند بعض علماء الاجتماع والانثروبولوجيا المعاصرين التمييز التالي :

فبعضهم يستخدم مصطلح حضارة لكي يشير الي مجموعة من الثقافات الخاصة التي بينها تشابه أو أصول مشتركة ، وبهذا المعني يتحدث البعض عن الحضارة الغربية التي تنضوي تحتها الثقافات الفرنسية والانجليزية والألمانية والايطالية والأمريكية الخ... أما البعض الأخر فيستخدم مصطلح حضارة للدلالة علي المجتمعات التي بلغت درجة عالية من التطور وتتصف بالتقدم العلمي والتقني والتنظيم المدني والتعقيد في التنظيم الاجتماعي

في كل الأحوال ورغم محاولة مفكري القرن التاسع عشر الألمان وضع تفرقة صارمة بين الحضارة والثقافة ، من خلال التأكيد علي إن الحضارة تشمل العوامل المادية والتقنية والثقافة تحتوي علي القيم والمثاليات والخصائص العقلية والفنية الأخلاقية العليا للمجتمع إلا إن هذه التفرقة لم تحظ بالقبول في أماكن أخري من العالم .

ثالثا : أصل الثقافة ونشأتها

البحث في أصل الثقافة كخاصية مميزة للجنس البشري يقتضي دراسة وافية لعلم السلالات البشرية المقارن والانثروبولوجيا وعلم العادات. إن الرأي السائد حتي الآن عند علماء الانثروبولوجيا والاجتماع يؤكد بأن الكائنات الإنسانية هي الوحيدة بين المخلوقات جميعها القادرة علي خلق ثقافة . وعلي الرغم من محاولة بعض الباحثين الكشف عن جذور ثقافة في عالم الحيوان الأقل شأنا من ثقافة الإنسان ، فان هذه المحاولات كان يرد عليها دائما بأنه لم توجد جماعة حيوانية تملك "لغة شفوية" علي الرغم من ان عديدا من الحيوانات تمارس حياة اجتماعية كجماعات النحل والنمل ، غير إن هذا الشكل من التنظيم لا يقوم علي ثقافة بل يقوم علي الغريزة .

يري **لنتون** أن مجمل سلوك الفرد يتكون من ثلاثة عناصر هي: سلوك غريزي في الفرد ، وسلوك هو حصيلة خبرته، وسلوك تعلمه من أفراد آخرين . وذهب الكثيرون الي أن السلوك الإنساني مدين بمعظمه الي ثالث هذه العناصر وأن السلوك الحيواني مبني بالدرجة الأولي علي العنصرين الأولين

إن اللغة أو الاتصال الرمزي من أهم عناصر الثقافة ، والثقافة بدون لغة هي ضرب من المحال . وكلما صارت الثقافة أكثر تعقيدا ازدادت الحاجة الي الاتصال ، لذلك فان القدرة علي التفكير الرمزي والمجرد هو ما تحتاج إليه اللغة . فاللغة والقدرة علي الاتصال بها تعتبران شرطا أساسيا وضروريا لأي مجتمع إنساني ولا يمكن تصور ثقافة بدونه

المحاضرة الثانية

مفاهيم أساسية مرتبطة بمفهوم الثقافة

توجد مجموعة من المفاهيم الأساسية المرتبطة بمفهوم الثقافة ، وسوف نشير –بإيجاز- الي بعض من هذه المفاهيم .

- **السمات الثقافية**: هي أبسط العناصر الثقافية التي تبدو في النواحي المادية أو المعنوية ، فالمسمار أو القلم أو طريقة الملبس تعد سمات ثقافية .

- **النمط الثقافي**: هو مجموعة من السمات أو العناصر التي تعمل ككل بالنسبة لموقف معين فدائرة الأفعال التي يقوم بها الفلاحون في الزراعة وطرقهم في الحصاد وتخزين المحصول وطرق إعداد الطعام الخ...كل هذا يمثل نمطا ثقافيا.

- **التراكم الثقافي**: أي عملية نمو الثقافة جيلا بعد جيل بفضل ما يضيفه الأجيال اللاحقة من عناصر جديدة تتكون وتتراكم علي أساسها الثقافة .

- **المركب الثقافي** : إن العناصر الفرعية للثقافة تتكون بدورها من روابط متشابكة وعندما تركز الصلات بين العناصر الفرعية للثقافة علي سمة ثقافية بعينها يطلق عليها عندئذ المركب الثقافي .فهناك علي سبيل المثال "مركب الحصان" وحوله تتجمع ممارسات تتصل بالركوب وصناعة عدة الحصان والحرب والزراعة وصناعة المركبات والنقل بالعربات .

- **التلاقح الثقافي** : وقد يطلق عليه مصطلح الاتصال الثقافي أو" التثاقف" وهو يشير الي التأثير المتبادل بين الثقافات ، أو بمعني أخر الي التغير

- الثقافي الذي يتم في ظروف خاصة يحدث فيها اتصال شديد بين ثقافتين أو أكثر متناقضتين تناقضا ملحوظا . كما يتضمن تغيرا واسع النطاق وسريع نسبيا في أي من الثقافتين أو كلتيهما .

- **الغزو الثقافي**: كما في حالات الاستعمار لإيجاد الرغبة في التأليف مع الثقافة الخارجية ويتم الغزو الثقافي اليوم عن طريق محاولة فرض التبعية الثقافية ومن خلال وسائل الإعلام ومواقع الانترنت وغيرها .

- **التمثل الثقافي** : يشير الي العملية التي عن طريقها تحاول الجماعات ذات أنماط السلوك المختلفة أن تندمج مع بعضها البعض في وحدة اجتماعية وثقافية مشتركة . أي إن هذه العملية تؤدي الي اندماج أو انصهار ثقافتين اوأكثر في وحدة ثقافية متجانسة . ومن أشهر عمليات التمثيل الثقافي ، تلك العملية التي حدثت للمهاجرين من مختلف دول العالم واستيطانهم للولايات المتحدة الأمريكية ، فقد ترتب علي ذلك تفاعل واندماج عدة ثقافات أوربية قديمة وظهور ثقافة واحدة مشتركة لهؤلاء وهي الثقافة الأمريكية العامة .

- **الانتشار الثقافي** : يشير الي عملية انتقال السمات الثقافية من ثقافة الي أخري . ولانتشار الثقافة لابد من توافر عدة عناصر ، منها وجود بعض السمات أو العناصر الثقافية التي تستحق أن تنتشر ، ومنها ضرورة وجود مجتمع يتقبل هذه السمات ، بالإضافة الي ضرورة وجود طريقة أو وسيلة تستعمل كأداة للنشر كالتلفاز أو الإذاعة أو الكتب والأشخاص الذين ينتقلون بين الثقافات المختلفة الخ....

- **الهوة الثقافية** : أو التخلف الثقافي وهو يحث نتيجة تغير بعض جوانب الثقافة بمعدلات أسرع من تغير الجوانب الأخرى ، فيحدث هوة أو تخلف لبعض العناصر الثقافية نتيجة عدم توازن عمليات تغير الثقافة . وذلك مثلا كما يحدث بالنسبة لسبق التنمية الاقتصادية مع تخلف التنمية الاجتماعية . وقد ورد مفهوم الهوة الثقافية في كتاب " التغير الاجتماعي" للعالم الأمريكي " **وليم أوجبرن**" الذي نشره عام1922م .

- **النسبية الثقافية :** أي منافسة الأشياء بالنسبة لثقافات المناطق المختلفة ، أي في حدود الثقافة الخاصة بكل منطقة .

- **الثقافة الفرعية** : ويقصد بها أن هناك جماعة من الناس يشتركون في أنماط متميزة من القيم والمعتقدات ، وتتميز طريقة حياتهم عن الثقافة الكلية

- التي تسود المجتمع الأكبر في بعض الأنماط الثقافية الخاصة بهم . وبمعني أخر فان الثقافة الفرعية بمثابة نمط من السلوك تتميز به الجماعات الخاصة التي تعيش داخل المجتمع الأكبر ، وقد يختلف سلوك أفراد تلك الجماعات عن سلوك أفراد المجتمع الكلي ، ولكن في نفس الوقت تتضمن ثقافتهم الفرعية علي عناصر تشترك فيها مع الثقافة الكلية كما تحتفظ لنفسها بعناصر أخري تميزها عن غيرها من الثقافات .

- **الحضارة** : تشير الي نوع متقدم من المجتمعات التي تتميز بدرجة متقدمة من الفنون والعلوم والتنظيمات الاجتماعية . وقد مال بعض الكتاب الي إطلاق لفظ "حضارة"علي الأجهزة الفنية للمجتمع مثل العلم والتكنولوجيا والإمكانيات المادية. أما لفظ "ثقافة" فتعني المحصلة النهائية للتراث الإنساني والاجتماعي سواء كان هذا التراث ماديا أو غير ماديا .